رأي القدس

اقتتال فلسطيني معيب

■ ما يجري حاليا في المناطق الفلسطينية المحتلة من صدامات واشتباكات مسلحة يسقط من جرائها العديد من القتلى والجرحى هو «وصمة عار» في تاريخ السلطة الفلسطينية بشقيها الرئاسي والحكومي على حد سواء.

فمن المؤسف ان الصراع المحتدم حاليا بين الفصيلين الرئيسيين، اي «حماس» و«فتح»، بات يهدد الشعب الفلسطيني وقضيته وطموحاته المشروعة في الاستقلال والتحرر، ويحقق آمال الدولة العبرية في اشعال فتيل الحرب الاهلية بين ابناء الشعب الواحد، لتقول للعالم ان هؤلاء ليسوا بشرا يستحقون دولة وحكومة والانضمام بالتالي الى المجتمع الدولي.

التقاتل الحالي يكشف مدى انحراف الفصيلين الاساسيين عن الخط الوطني، وحرصهما على السلطة اكثر من حرصهما على الوطن وتحريره من قبضة الاحتلال.

فبعد اغتيال الاطفال بطريقة بشعة، ها نحن نرى رئيس الوزراء الفلسطيني السيد اسماعيل هنية يتعرض للاذلال والمهانة على معبر رفح ويمنع من الدخول، ثم بعد ذلك لاطلاق نار من مجموعة فلسطينية محسوبة على رئيس السلطة بهدف قتله، مما ادى الى اغتيال حارسه واصابة ابنه البكر ومستشاره ومجموعة من المستقبلين.

اي سلطة هذه التي يتقاتل عليها هؤلاء ورئيسها يتعرض للاذلال، ويتوسل المرور عبر المعبر في رفح، ويعامل من قبل المراقبين الدوليين كمهرب عملة او مخدرات؟ واي سلطة هذه التي لا تستطيع ان توفر الأمن لمواطنيها، بل تتحول ميليشياتها الى مصدر اساسي لزعزعة الأمن؟

اليوم من المفترض ان يلقي الرئيس محمود عباس خطابه الموعود الذي سيعلن فيه، مثلما قال مستشاروه، حل السلطة والدعوة الى انتخابات نيابية ورئاسية عامة كطريق وحيد للخروج من المأزق الحالي.

هذا الخطاب لن يحل المشكلة بل سيخلق مشاكل اكبر. فحركة «حماس» ستشكك بقانونية اي خطوة تصب في مسار الدعوة لهذه الانتخابات، كما انها قد لا تشارك فيها لاسباب وجيهة، ابرزها انها ستتم في وقت يعاني فيه الشعب الفلسطيني من الجوع والحرمان بسبب الحصار الخانق، وثانيها ان فوزها مجددا في هذه الانتخابات لن يسمح لها بتشكيل حكومة فلسطينية، لان هذا الفوز لن يكون محل اعتراف وقبول من قبل الولايات المتحدة والدول الاوروبية والعربية المانحة.

الشعب الفلسطيني يعيش حاليا حالة استقطاب غير مسبوقة، ويكاد يصبح العداء بين التنظيمين المتخاصمين اكبر من عدائهما تجاه العدو الاسرائيلي المحتل للارض والمصادر لحقوق الفلسطينيين اصحابها الشرعيين.

ما يريد هذا الشعب ان يسمعه من السيد ابو مازن هو الخروج من هذا الوضع المأساوي ليس بحل الحكومة وانما بحل السلطة والاعتراف بفشلها الذي ادى الى تصعيب حياة الشعب الفلسطيني وتأخير عملية التحرير، واشعال فتيل الحرب الأهلية.

السيد عباس يجب ان يعلن فشله وفشل الحكومة في الوقت نفسه، لانهما سويا عجزا عن التعاون والتفاهم وتحولا الى عدوين يتقاتلان على حساب الشعب الفلسطيني ودماء ابنائه.

المخرج الوحيد والمشرف هو ان تعود الاوضاع الى طبيعتها كاحتلال اسرائيلي وشعب يقاوم هذا الاحتلال، لان اكذوبة سلام اوسلو قد سقطت وفقدت شرعيتها، مثلما فقدت مصداقيتها.

المشهد العراقي المتدحرج نحو حافة الانفجار

سطام الكعود *

■ إلى أحرار العالم إلى حملة مشاعل الفكر والتحرر وكل شرفاء الأمة والوطن من الغيارى المجاهدين ونحن ندلو دلونا في جب المؤتمرات التي تتردد أصداؤها مع تصاعد لغة البارود والدخان ورائحة الدم العراقي المسفوح وأكداس الجثث التي باتت مشهدا يوميا مألوفا وكأنها السكة المأساوية التي يجب أن يسلكها قطار التحرر الجديد أو كأنه كتب على الشعب العراقي العظيم أن يذبح كله كي يدفع ضريبة العالم الجديد وفق رؤى المغولين الجدد ومن أوهمهم وسوغ لهم وطبل وخادع وزيف الحقائق من اجل أن يروي غليل الحقد وحب الدم وشهية المناصب والأنانية والكسب الرخيص ومصادرة الهوية العراقية العربية وسلب قوت الأبرياء ومسح تاريخهم وبيع كل المآثر في سوق الرقيق والنخاسة والضعة ونهب وتبديد الثروات في عبث لا أخلاقي يكابده العراق وهو يصرخ هل انتم منتهون؟

إن الشرف والأمانة والمبادئ الأصيلة تدعونا إلى أن نكون واضحين في تحمل المسؤولية ونحن نرفع لافتة النصرة لأهلنا المذبوحين باحثين عن طريق امثل للخلاص لا أن نمهد دون شعور لوضع الأغلال الأقسى في أعناقهم فربما هناك من تبهره الأضواء ويغريه الإعلام ويطمئن لبريق الدعوات ويقع في مصائد الميكيافيليين التبريريين المحتالين عشاق الشهرة وصيادي الفرص مسترخيا على أنين جثة الوطن المسجى تتناهبه ضباع الحقد بعدما افترسته كواسر البغي والعدوان، فكوفي عنان هذا السادن الذليل لصنم الأمم المتحدة ليس سوى فزاعة لهش العصافير ما ردت كيد باغ ولا نصرت امة مظلومة، أولا نتذكر ما ألحقته من أذى بالشعوب من إبادة وتقتيل وانتهاكات، سيادة أضفت عليها المشروعية وما الحصار الجائر الذي كربنا بالجوع والبؤس لأهلنا، وشرعنة الاحتلال عنا ببعيد، فلنحذر المتربصين للمحافل المندسين الخونة الجواسيس المتاجرين بدماء الأبرياء والمحابين الباحثين عن فرص التسلق والصعود على أكتاف الضحايا وقوفا على جماجم الشهداء، فحيث تكون الحاجة والحرج يدفع رجال اللعبة الكبرى بأذنابهم وعملائهم للترويج إلى مؤتمر أو كرنفال لامتصاص النقمة أو تحريف الاتجاهات والتوجهات والإلهاء واستجلاب الأضواء والاهتمامات لتمرير الصفقات المشبوهة وإرساء المرامي الخبيثة تبييتا لأمر أو خطة أدمى لقمع المشروع العراقي المقاوم الذي بات تجربة كبرى شأن أضواء تجربتي الجزائر وفيتنام شهد لها حتى من اصطلوا بنارها.

علينا موضوعيا أن ندرس التجارب التي مرت أو ما انفك منها حاضرا من دعوات إلى مؤتمرات بشأن دارفور والصومال والقضية الفلسطينية، حيث يكون حجم التحرك والأهمية بحسب ما تقتضيه مصالح الجناة، ويخبو الصوت والصدى إذا ما تهافتت المنافع والمطامع، فهي تارة جادة مباركة ومعمدة وقراراتها ملزمة وحاسمة سريعة تلوح بسيف التسلط والعقوبات والعدوان لقمع إرادة شعب أو لجم حركة تصحيح أو نظام لا يتماشى مع الركب العولمي بغض الطرف عما يتبجحون به من مفردات الديمقراطية، فهناك وباء معد جديد يهدد الأمن والسلام الأمريكيين وصحوة الشعوب ولا بد من التخلص منه ومحاربته والعقبة الكأداء انه غير قابل للزوال إلا بمحو الإنسانية.

لا نريد أن نسخر من عذابات من علقوا علينا آمالا فنبتذل ولننتبه إلى تلك الأصوات التي ترفض إقامة مؤتمر دولي بشأن العراق يتحركون مع عصى المايسترو الأجنبي عبيد أذلاء أمناء على تمرير مشاريع بيع العراق لأسيادهم الذارفين دموع التماسيح على محنة العراق المتخبط بدم سفحوه، فهم أول من نحره على مذبح الحقد والتاريخ والعدوان، فإذا ما كان المؤتمر بشأن سلام زائف رحبوا به، فأي سلام بين جلاد وضحية؟ أما إذا كان بشأن تقييم العملية السياسية وإعادة ترتيبها فهذا أمر مرفوض وخط احمر غير قابل للتفاوض والحوار فيه بت قاطع من ولي فقيه، وما بين تلك العمامة وهذا الكرسي يتأرجح مصير العراق الكئيب ويمر غريبا حتى عن وجهه وأهله وهويته وكأنه مظلة مخرومة يتجنبها الداعون فرارا من مطر المواجهة أو شمس الحقائق، ويحاول البعض أن يثير النزعات الطائفية والمذهبية أو العرقية البغيضة.

إننا نناشد ذوي الضمائر الحية وأصحاب الفكر من الشرفاء والوطنيين والمبدئيين والأمناء والعقلاء من العامة والنخبة الكف عن التشبث بالدعوات المشبوهة واللامجدية وجلسات المجاملة وحوارات الطرشان والجلوس مع كل من هب ودب واستقبال ومصافحة الأيادي الملطخة بالدم العراقي الحرام أو طلب النصرة من العاجزين أو المسخرين أو التقاعس أو الاعتماد المطلق على الغيب وإرخاء الحبل لكف الغدر تحصد فلذات أكبادنا محاولة حرق شموخ آخر نخلة في ربوع الوطن، فهل أن من جاء بالمحتل تحت ذرائع مهما كانت سيطلب منه الخروج؟ أو تأملون منه أن ينتفض ذات يوم إكراما لصرخة حرة عراقية يعربية؟ ومهما حاولوا وأد كبريائها تحت أحذية ضمائرهم بما ران من ظلام على قلوبهم أو لعرض ينحرنها جهارا؟ فكم شمسا أو نجما اطفأوا في غياهب سجونهم السرية وروحا أزهقوا في أوكارهم؟ وكم مصحفا احرقوه ومسجدا دمروه ودار عبادة؟ فهل هم على ذلك نادمون؟ كلا بل ينظرون وهم شامتون يتضاحكون، لقد عبثوا بخارطة الأفكار والتاريخ والإنسان والحضارة والمجتمع، وابكوا العراق العزيز الذي كان عز العرب وهيبة الإنسانية وسيبقى لان الشرفاء يحملون لواء البشارة من هذه الأرض المقدسة الطيبة فها هو تقرير بيكر هاملتون الذي خرموا به آذان الكون وكأنه سيوزع الخبز على أطفال أفريقيا أو سيأتي بالشمس من تحت عباءة بوش جاء ليفسر الماء بعد الجهد بالماء، ومن يقرأ بين السطور يشم منه رائحة الإحباط والشعور بالخذلان والهزيمة لأنهم لا يفقهون أي منقلب ينقلبون، فهم يدركون إن العاقبة للمتقين أكثر من المؤمنين أنفسهم (وان الأرض يرثها عبادي الصالحون) لان الأرض تقاتل مع أصحابها.

إننا نهيب بكل رجالات الدين والكيانات الفكرية السياسية والتيارات الاجتماعية والثقافية والتجمعات والأحزاب الوطنية والعشائرية وكل حر أبي نصرة العراق والأمة نصرة الحق وكف الحيف والظلم والأذى المستشري عن أبناء الأمة فالناس إما أخوة في الدين أو نظراء في الخلق ونحن إذ نتحفظ على الكثير إلا إننا مع كل دعوة نبيلة خيرة هدفها وحدة ورفعة وسيادة العراق الحبيب.

* الأمين العام للجبهة الوطنية لمثقفي وجماهير العراق

مصر: إلى من يدينون الضحية ولا يلومون الجلاد

محمد عبدالحكم دياب *

■ عندما يوجه مواطن إدانة لشعبه، إنما يدين نفسه، كاشفا لخلل ما في مكان ما. ونعتقد أن الإدانة تعكس حالة انكسار سياسي ونفسي، تستغل في الحرب النفسية الحامية الموجهة إلى المنطقة. وحملة الإدانة التي يتعرض لها المصريون، داخليا وخارجيا، تصاعدت مع زيادة الحراك السياسي خلال السنتين الأخيرتين، وأبرز مظاهرها لغة التعميم المسيئة لجموع الشعب، وكأنه كتلة واحدة صماء، وهذه اللغة تصل إلى مستوى السب والإهانة.. وأخف درجاتها تلك التي يسألونك فيها أسئلة من قبيل أين الشعب؟ ولماذا لم يتحرك بعد؟ وكيف يتحمل الإذلال والإفقار والسرقة والنهب والتعذيب وهتك الأعراض وهو صامت؟ وتشعر أحيانا أن المتحدث وكأنه من كوكب آخر أو أنه متخف في ثياب مستشرق يتحدث إلى أناس ليست له بهم علاقة، ويفتي في أمور لا تعنيه، ولغة إدانة الشعب تعبر، في جانب منها، عن خلل واضح في النظرة إلى الأشياء، تصور لصاحبها بأن الأمر لا يعنيه، وبذلك يبرئ ذمته ويسقط عن نفسه عبء تكاليف وأعباء الالتزام الوطني والإنساني والأخلاقي. والبعض يستخدمها سترا لتواطئه ومشاركته في التجاوزات والجرائم المقترفة من طرف تحالف الاستبداد والفساد والتبعية، الحاكم والمتحكم في مصر. وحجته إذا كان الشعب لا يتحرك فالتسليم بالأمر الواقع والخدمة في بلاط ذلك التحالف هو الحل. وهذه اللغة تعبر لدى فريق ثالث عن يأس وقنوط، وفقدان للأمل في التغيير لطول المعاناة.

وفضلا عن تناقض هذه اللغة مع حالة الحراك السياسي الواسع في مصر، فإن النبرة ارتفعت في وقت نجحت فيه قوى التغيير في الإمساك بخيطه، وبدلا من أن يكون المتحدثون بهذه اللغة أكثر فهما للظروف. قابلوا معاناة الشعب باستخفاف مصحوب باستعلاء غير مبرر، وكثير منهم ينسى ما يلوكه هو نفسه، ليل نهار، من أن «الساكت عن الظلم شيطان أخرس». وحسنة هذه الأيام تتمثل في أن ساحة العمل الوطني صارت مشرعة الأبواب أمام كل قادر وراغب، وبدأت تحد من تأثير هذه اللغة على الرأي العام. فالرأي يعلن الآن بلا مواربة، والرفض يمارس بجرأة، والتظاهر يتجدد ولا يتوقف، ولم يبق إلا العصيان المدني لإحداث التغيير المطلوب.. بعد أن أغلقت أمامه كل الأبواب والنوافذ. وهناك حاليا آلاف النشطاء والمعارضين يكشفون، أولا بأول، جرائم نظام حسني مبارك، خاصة جرائم أجهزة أمنه وبلطجية حزبه وتسلط عائلته. وعلى الرغم من استمرار المطاردات للنشطاء والمعارضين، واعتقالهم والتنكيل بهم وهتك أعراضهم، إلا أن الحراك يتسع ولا يضيق، وإن كان النشطاء والمعارضون، وما زالوا، يتحركون في جزر صغيرة نسبيا، بدت غير ممكنة من سنوات قليلة، فمن المتوقع أن تلتحم هذه الجزر، مكونة يابسة صلبة ورحبة، تتحمل وقع أقدام جحافل الزحف القادم، الذي تترقبه الجموع.

ويعلم من يدينون الشعب أنه أعزل تماما، ومع ذلك دخل معركة، هي بالتأكيد غير متكافئة، بالمعايير المادية والميدانية. شحذ فيها حسني مبارك أجهزة وإمكانيات وطاقة على البطش وإفراط في العنف أكبر من طاقة أي جماعة على التحمل، ومع ذلك دخلتها قوى التغيير متحدية أكثر النظم البوليسية والفاشية عنفا ونكالا وفسادا، وهي في معركتها تعي أن تحالف الاستبداد والفساد والتبعية تمكن من الحكم والدولة بترتيبات انقلابية قام بها حسني مبارك في صمت، وكانت وسيلته قرارات وأوامر وتعليمات رئاسية وحزبية وإدارية، وقوانين وتشريعات صدرت عن سلطة تشريعية تحولت إلى معمل لتفريخ التزييف وتشويه الإرادة العامة للشعب المدان!!.. قوانين حسب الطلب، وتشريعات على مقاس «العائلة»، ومن هم في خدمتها. وخلاصة كل ذلك أن حكم حسني مبارك ما ترك مجالا إلا أفسده وحط من قدره. هبط بمستوى التعليم وتدنى به. تحول على يديه إلى تجارة ورش ومحلات، تباع الشهادات كما تباع السلع والبضائع والمواد الغذائية، والتعليم الذي كان مشاعا للناس، مثل الماء والهواء، أصبح مجال استغلال واحتكار للتجار ورجال الأعمال. ونفس الشيء حدث في الخدمات الصحية، وحسني مبارك هو الذي جعل الدولة تتخلى عن مسؤوليتها في الرعاية الصحية، سواء على مستوى الوقاية أو في مجال العلاج.. حق الحياة أصبح متاحا لمن يملك المال والنفوذ. وعلى الآخرين إما أن يتركوا البلاد ويهجروها أو يتحملوا مسؤولية بقائهم فيها. ومن بقي عليه ألا يمرض أو يرهق أو يهن، فالطريق الذي يصله بالمستشفى في السابق تغير مساره وأصبح يصل به إلى القبر مباشرة. ولا نقول هذا الكلام من قبيل الشكوى أو القنوط، إنما للكشف عن حجم الضغوط النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يتعرض لها الشعب المدان من قبل البعض.

وحسني مبارك أبى إلا أن يدخل التاريخ من باب تدمير مصر الحديثة وإلغاء دورها، وقد تفوق بذلك على نيرون، الذي استمتع بحرق روما، عاصمة امبراطوريته الرومانية، ولم يكتف حسني مبارك بتدمير عاصمته إنما كان تدميرها جزءا من تدمير مصر بأكملها، حرق الزرع وأمات الضرع وقتل الناس. نشر بينهم الأوبئة، واستورد لهم مبيدات مسرطنة، وباع لهم مواد غذائية فاسدة، منتهية الصلاحية، وأفسد البيئة ولوثها، وجعل من مصر موطنا للأمراض المهلكة: الفشل الكلوي، والكبد الوبائي، والسرطان بكل أنواعه، وأضحى من الصعب أن تجد مواطنا متوسط الحال أو فقيرا ليس مصابا بواحد أو أكثر من هذه الأمراض، وموارد الدولة، المفترض صرفها على الخدمات تذهب دعما للمحتكرين والمستثمرين.. تشجيعا لهم على مزيد من النهب والسرقة، وحكم حسني مبارك هو الأشهر في التاريخ في ابتداع فنون الجباية ونهب الأموال العامة، ثم يهبها علانية إلى عائلته ومعاونيه، فباسم دعم التصدير يمنح المحتكرين دعما يصل إلى خزائنهم وجيوب المستهلك الأجنبي.. وبحجة تشجيع الاستثمار لم يكتف بإعفائهم من الضرائب.. منحهم الأراضي مجانا وأغدق عليهم تمويلا، بلا ضمانات، ليقيموا القلاع والمستوطنات والحصون والقصور والمنتجعات.. يحيطونها بأسوار عالية بعيدا عن مدن وأحياء الفقراء والعشوائيات، لأنها تآذي عيونهم. ومقابل ذلك يحرم الفقراء وصغار الكسبة والموظفين والفلاحين والعمال من الحصول على قطع أرض صغيرة يقيمون عليها مساكن متواضعة، غير عشوائية، تصون آدميتهم، وتقيهم برد الشتاء وتخفف عنهم حر الصيف.

والضغط الزائد أصبح فوق طاقة المواطن على التحمل، وآخره ما جرى على جبهة أسعار الطاقة والوقود والغاز، يباع للفقراء بأغلى الأسعار. ويجبر المواطن على دفع إتاوات لا قبل له بها، مقابل الحصول عليها. أما المحتكرون والمستثمرون فيحصلون عليها بأسعار مجانية تقريبا، ويمكن التأكد من ذلك بالتعرف على حجم دعم الطاقة والوقود والغاز لهم، وقد تجاوز 42 مليار جنيه مصري.

والقاهرة، التي كانت واحدة من أجمل مدن العالم، تكاد تكون العاصمة الوحيدة التي ألغيت فيها بالوعات الصرف الصحي، ومجرد أن تسقط عليها كميات محدودة من المطر تتوقف فيها الحياة. أصبحت عاصمة بلا دورات مياه، ويا ويل مصاب السكر أو المرأة الحامل أو مريض ضغط الدم العالي، إذا ما احتاج دورة مياه وهو في الطريق العام.. كم من المآسي ترتبت على إلغاء دورات المياه. عاصمة بها مواصلات لا تصلح للاستخدام البشري، ويضطر المواطنون إلى المغامرة بحياتهم وركوب «نعوش طائرة»، معروفة باسم الميكروباص..مملوكة لمافيا تدير امبراطورية الموت لحساب أمناء وضباط شرطة، يعتمدون في تشغيلها على أرباب سوابق وبلطجية ومشردين، وتمثل مصدرا من مصادر الرعب، والمجتمعات العمرانية الجديدة تركت هي الأخرى بلا مواصلات تقريبا، بعد أن كانت المدن والقرى الجديدة، حتى زمن قريب، تشيد بخدماتها.. المستشفيات والمدارس والأندية ودور العبادة مع المواصلات التي كان بعضها مجانا تشجيعا للمواطنين على السكنى فيها. ومعروف أن المجتمعات المتقدمة تعرف برقي مواصلاتها العامة. مدن اكتوبر والشروق والعاشر من رمضان والعبور وغيرها، وهي مدن جديدة، لم يمتد فيها خط ترام واحد، ولا وصلها قطار يربط بينها، ولا بها حافلات داخلية تخفف عن سكانها.

وعن النظافة تقول آخر أخبار مصر أن مدينة الجيزة، عاصمة محافظة الجيزة، تحولت إلى «مقلب للزبالة» تقف فيها تلال وجبال القمامة نصبا تذكارية للفساد والفشل، وبدلا من معاقبة محافظها عوقب الذين احتجوا على سوء أحوال مدينتهم. والمجاري المائية، أحد أهم مواطن الجمال في أي بلد، تحولت إلى مستنقعات ومراتع للبعوض والحشرات والجراثيم والديدان، امتد خطرها إلى المياه الجوفية التي يشرب منها ملايين السكان في الريف والحضر.. وشعب يعاني من كل هذا الضغط والعذاب، يجب أن نتوجه إليه، نبين له أن حاكمه مصدر بلائه وسبب مصيبته، والجهد الأكبر يجب أن يتركز على الدفاع عن حقه في حياة كريمة مستقرة وآمنة. دون الوقوع في إدانة الضحية وترك الجلاد ينعم باستبداده وفساده وتبعيته. هو فقط من تتوجه إليه كل طاقة الغضب والسخط.

والمدقق في أوضاع مصر يتبين له أن لغة الإدانة والسخط الموجهة ضد الشعب تعكس موقفا رسميا ونخبويا مرَضيا، يقوم على احتقار كل ما له علاقة بالشعب، ويجد ترجمته فيما يعرف بـ«الفكر الجديد»، الذي يطرحه «الرئيس الموازي»، جمال مبارك، فمن يرفعون رايته، يدينون الشعب ويهينونه، ووجدوا أن الطريق الأسلم هو استعارة أدبيات ومفردات أنصار المحافظين الجدد ومؤيدي المسيحية الصهيونية، في مصر، فالكلام الوطني يوصف بـ«الحنجوري»، أي الذي بلا معنى، باللهجة المصرية. وإذا ما أرادوا تقليد أشقائنا الشوام نعتوه بـ«طق حنك». أما الخطاب المحفز ضد الاستبداد والفساد والتبعية يصنف بأنه «شعبوي»، يعتمد «لغة خشبية»، وأما إذا ما كان الإنسان منحازا للوحدة العربية ، مثل كاتب هذه السطور فإنه يعرف بـ«القومجي». وإذا ما كان مسلما يتخذ من الدين مرجعية لعمله السياسي فهو «المتأسلم»، ومن لا يذعن أو يرضخ لاحتلال أو غزو فإنه «إرهابي». وكل ذي عين يستطيع أن يرى مقاومة عنيدة في مصر، من يمارسونها هم من الشعب.. ليسوا مستوردين، أو مجلوبين على ظهور الدبابات الأمريكية أو الصهيونية، وهناك من هم على يقين بأن قوي التغيير قطعت الخمسمئة الأولى في مسيرة الألف ميل. ولسان حالهم يقول للساخطين واليائسين: أن تضيئوا شمعة أفضل من أن تلعنوا الشعب.

* كاتب من مصر يقيم في لندن

هل المرأة العربية ضحية التقاليد أم قوانين الاحوال الشخصية؟

هيفاء زنكنة *

■ ما هو موقع المرأة في البلدان العربية؟ هل هي ضعيفة، مسلوبة الارادة، يتحكم بها الرجل والارث الذكوري الطاغي على المجتمع تاريخا وحاضرا؟ هل هي ضحية القيم والتقاليد أم الاسلام وتشريعاته أم قوانين الاحوال الشخصية المستندة الى الشريعة الاسلامية؟ مما يدفعنا الى طرح سؤال مختلف قليلا وهو: هل هي ضحية حقا؟ وكيف العمل على تخلصها من الحيف اللاحق بها منذ مئات السنين؟ ما هو موقعها في تنمية البلدان وتطورها وتأمين حقوق المواطنة؟

هذه هي بعض الاسئلة المهمة التي يحاول تقرير«نحو نهوض المرأة في الوطن العربي»، الذي صدر، أخيرا، عن برنامج الأمم المتحدة الانمائي. وقد ربط التقرير، منذ الصفحات الاولى، بين العمل من أجل نهوض المرأة العربية والحرص على نهضة البلدان العربية بأسرها.

والتقرير هو الرابع والأخير في سلسلة التقارير المتعلقة بالمنطقة العربية، التي أعدها البرنامج. كان التقرير الأول الصادر في عام 2002 بعنوان (خلق الفرص للأجيال المقبلة)، والثاني في عام 2003، (نحو إقامة مجتمع المعرفة)، والثالث (نحو الحرية في الوطن العربي)، في عام 2004.

وقد اعتبر التقرير الذي ساهم في كتابته ومراجعة مسوداته وابداء الرأي في نصوصه ما يزيد على المئة باحث ومختص في مختلف الشؤون الاجتماعية والقانونية والاقتصادية والفكرية والادبية عامة وشؤون المرأة والنوع الاجتماعي خاصة، ان انصاف النساء من غبن تاريخي وقع عليهن واجبٌ ومطلبٌ حق. وفي الوقت الذي تمكنت فيه البلاد العربية من تحقيق إنجازات مشهودة في النهوض بالمرأة، مازالت أمامها أشواط لبلوغ الغايات النهائية المرغوبة.

ويشير عنوان التقرير الى أهمية المنهج المتبع في الكتابة وطبيعة الرسالة التي يحاول تبليغنا اياها. اذ استخدم التقرير كلمة (نهوض النساء) وليس (تمكين النساء) المستخدم في التقرير السابق والمترجم حرفيا عن الانكليزية. اذ يحمل نهوض المرأة (معنى الفعل المناضل للمرأة لنيل حقوقها ونهضتها من خلال بناء قدرات النساء وتوظيفها بفعالية في سياق مجتمعي موات). كما انها تدل على الفعل الارادي ، من هنا يرسي التقرير موقفه المبني على ان المرأة هي ذاتها من تقوم بدور رئيسي في تصحيح إرث الاستضعاف بدلا من ان تكون كما توحي المقاربة العربية للمصطلح الاجنبي في وضع المتلقي لفعلي التمكين والتقوية.

يتميز التقرير بالصدق في طرح اشكالية وضع النساء وعدم فصل موضوع المرأة عن الوضع العام. فلم يبق اسير النظرة الواحدة الضيقة والقاء اللوم على جهة معينة دون غيرها متجنبا في الوقت نفسه هلامية العاجز عن تحديد الموقف الواضح وكذلك صبغة (اللاسياسة) التي تطبع تقارير الامم المتحدة عموما. فوضع المرأة يمثل محصلة تفاعل عديد من العوامل الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تتشابك بطريقة مركبة، وبعضها إشكالي الطابع، بما يعوّق نهوض المرأة. ويتناول التقرير كل واحد من هذه العوامل على حدة وبالتفصيل. حيث يتطرق اولا الى اشكالية الداخل والخارج. بين ماهو مجتمعي تقليدي وثقافي واستبدادي وما هو مستورد ومفروض تحت شعار التجديد والتمكين سياسيا واقتصاديا وعسكريا، أحيانا، كما هو حال العراق. يذكرنا التقرير بأن (الاشكالية اكتست ثوبا جديدا بعد اعلان الادارة الامريكية الحالية عزمها على اعادة تشكيل البنية المجتمعية العربية خدمة لاغراض حربها على الارهاب، كما تعرفه. ولايجوز الخلط بين الترويج الاجرامي للابرياء ، المدان سلفا، وبين المقاومة المشروعة التي يكفلها القانون الدولي ضد الاحتلال الاجنبي والانظمة العنصرية).

وتنعكس جرائم الاحتلال الصهيوني لفلسطين والامريكي للعراق بحدة على وضع المرأة وقدرتها وافراد عائلتها على مواصلة الحياة فضلا عن ديمومة الوجود وتطويرها من نواحي التعليم والصحة وتحسن الوضع المعيشي. من هنا يتبين بان ما يعالجه التقرير عموما يختلف في سلم الاولويات من بلد الى آخر ومن شريحة اجتماعية الى اخرى وان كان الفارق الاساسي هو ما بين وضع المرأة في ظل الاحتلال الاجنبي ووضعها في بقية الدول العربية المتمتعة بالسيادة بدرجات مختلفة. فأولويات المرأة الفلسطينية المعرضة للحصار والتجويع والعراقية المعرضة للقتل وفقدان كل حقوقها التي اكتسبتها على مدى عقود طويلة من النضال تختلف عن اولويات المرأة في تونس والمغرب الداعية الى تحسين المشاركة السياسية ووصول المرأة الى مراكز صنع القرار. وهي طبعا مطالب ضرورية واساسية وما يجب ان تطالب به كل امرأة ، بمساعدة الرجل، في الاوضاع المستقرة سياسيا واقتصاديا.

يتطرق التقريرالى موقف الاسلام، عموما، من المرأة لينتقل بعدها الى تحليل مواقف التيارات الاسلامية والاسلامية السياسية ، من التيار السلفي الى المعتدل. مبينا وببحث منهجي دقيق اختلاف التفسيرات واسبابها. وانطلق التقرير في معالجته بدءا الى أن التيارات الإسلامية تمثل طيفا واسعا، وشديد التفاوت داخليا، وأن الكثرة الغالبة من التيارات الإسلامية في البلدان العربية تمثل قوى مجتمعية واسعة الانتشار وعميقة الجذور الشعبية بسبب ممارستها للعمل الاجتماعي والسياسي وسط عامة الناس لسنوات طوال. وان الإسلام، عنصر محوري في النسيج الثقافي والروحي للشعب العربي وان أي قوة سياسية لا تستطيع أن تتناسى أهميته. وان بقيت إعادة فتح باب الاجتهاد المستقل، وتشجيعه وإثابته، مطلبا أساسيا لتحقيق التزاوج المبدع المطلوب لمجتمع الحرية بمفهومها الشامل المعاصر والمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية.

وشدد على أن (التحدي المطروح على الخيال الإسلامي بشأن المرأة ـ كما هو بشأن السياسة برمتها– هو كيفية تنمية البديل الإسلامي وتطويره وتعايشه مع سياقات مختلفة أو مخالفة، والنهوض بالمرأة بقوة في الخطاب والتطبيق لا باعتباره نتيجة بل بوصفه شرطا لإسلامية المجتمع).

وفي مجال المقارنة ما بين تمثيل النساء في الحركات الاسلامية والعلمانية يلاحظ بان بان الاولى استهدفت تنظيم النساء حديثا. ففي حزب الله في لبنان مثلا تنخرط النساء في اطار (الهيئات النسائية) ويشاركن في معظم مؤسسات الحزب الاجتماعية والتربوية والثقافية والاعلامية، كما يلعبن دورا في العمل المقاوم ، لكنهن مازلن غائبات من المجالس الاساسية للحزب. وفي فلسطين تمثل النساء في حزب الخلاص الوطني الاسلامي نسبة 27 % وفي المكتب السياسي (اعلى هيئة للحزب) 15 % . من الناحية الثانية، اهتمت الاحزاب الشيوعية والقومية بتنظيم النساء للدلالة على تقدمية ما تحمله من افكار. ولكن عمدت الكثير منها، سواء التقدمية منها ام المحافظة، على خلق تنظيمات منفصلة تدار من قبل امرأة. مما خلق للمرأة حيزا خاصا ضمن حيز الحزب العام. وكان الاعتقاد السائد بان ذلك سيساعد على تشجيع المرأة على دخول معترك السياسة العام. ولا تدل النتائج العامة على ذلك.

ولا يخلو التقرير من مراجعة مواقف العديد من النظم الاستبدادية بشقيها الاسلامي والعلماني مؤكدا بان الانظمة العلمانية لاتحمي بالضرورة حقوق المرأة بل قد تكون من عوائق نهوضها وتطورها. خاصة من ناحية حرمانها ، مثل بقية ابناء الشعب ، من حقوق المواطنة. وان كان (من المفارقات أن أنظمة حكم قمعية قد حققت لصالح حقوق النساء، ولأغراضها الخاصة، إنجازات مهمة لم تكن لتتحقق لو ترك عنان الأمور للحركة المجتمعية الطبيعية التي تحددها القيود الموروثة، بل إن آليات القمع السياسي قد استخدمت أحيانا للإسراع بنهوض المرأة). لكنها حالات استثنائية ترتبط بمرحلة تاريخية معينة لأن للقواعد الشعبية مقاومتها التي تواجه بها الاوامر الصادرة من السلطة الفوقية.

كما أدى تبني الحكومات الغربية موضوعة (حقوق المرأة) كأداة للضغط السياسي الى احداث تأثير عكسي، لا سيما في الأعوام الأخيرة.

وغالبا ما يكتفي بعض الزعماء العرب المتأثرين بالضغوط الخارجية بإجراءات تجميلية شكلية، مثل تعيين إحدى النساء في منصب سياسي رفيع، لكنه ليس منصباً لصنع القرار. مما يجعل المرأة بيدقا في لعبة لاتحقق لها منجزا حقيقيا.

لكنّ الصورة ليست كلها معتمة وكئيبة؛ حيث تمكنت النساء من تحقيق إنجازات مبهرة في مختلف مجالات النشاط البشري.

فإن عدد الفتيات اللاتي يتابعن تعليمهن الثانوي أو الجامعي في تزايد مستمر. وشهدت العقود الاخيرة تطورا في موقعها السياسي. اذ بات يحقّ للمرأة التصويت في كلّ البلدان العربية باستثناء المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية. ووصلت مشاركة المرأة في البرلمانات معدل عشرة بالمئة، وهي نسبة قريبة من الدول الاوربية، وهناك وزيرة واحدة على الاقل في معظم الحكومات العربية. كما يكرس التقرير للرائدات والمتميزات واللامعات في كل المجالات الادبية والعلمية والاقتصادية والبحوث فسحة تشير الى ان انجاز المرأة لن يقل عن انجاز الرجل في كافة مجالات الانتاج المعرفية والابداعية لو اتيحت لها الفرصة الملائمة والبيئة الطبيعية للنهوض والتنمية.

ويدعو التقرير، على وجه الخصوص، إلى اعتماد مبدأ الدعم التفضيلي المؤقت، أو التمييز الإيجابي، في كل مجتمع عربي حسب ظروفه الخاصة، لتوسيع نطاق مشاركة النساء في مختلف مجالات النشاط البشري، حتى تتفكك بُنى التمييز التي دامت قرونا ضد النساء.

* كاتبة من العراق

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741ـ0208 (6 خطوط)ـ
فاكس: 8902 741ـ0208 أو 7637 748ـ0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 420 57364 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Ch